المحاضرة الأولى:

اللسانيات التاريخية والمقارنة

إن اللغات مثلها مثل باقي العلوم الأخرى تندفع من منطلقات فكرية متعلقة بحياة الإنسان النفسية والاجتماعية، وبما يحيط بها من عوارض البيئة. فقد ألهم الإنسان العقل الذي مكّنه من تفسير غالب الظواهر التي تعترض حياة الإنسان، ولا ضير، أن من بين هذه الظواهر اللغة كحادثة إنسانية ترتبط بحياة الفرد والجماعة ارتباطا إلزاميا؛ فعجّل ذلك من ظهور الأبحاث اللغوية على اختلاف درجاتها وصفاتها، وعلى مختلف المراحل الزمنية التي تساير حياة الإنسان، حيث تكونت فيما بعد تيارات فكرية لغوية أفضت مناهج بحث تجلت من خلالها منابع اللغة خاصة ما ظهر في الأبحاث اللغوية الأوروبية من أعمال وإنجازات امتدّ أثرها إلى شتى أنحاء العالم، بدءًا بالدراسات اللغوية التاريخية وظهور المنهج التاريخي، وأتبعه المنهج المقارن والدراسات المقارنة في المراحل الأولى للنهضة العلمية داخل القارة الأوروبية. لتليها لاحقا الدراسات الوصفية والمنهج الوصفي، ثم برز المنهج البنيوي والدراسات البنيوية التي تزامنت مع ظهور العالم السويسري "فيرديناند دي سوسير".

لقد امتازت الدراسات اللغوية الحديثة بكثرة موضوعاتها وعنواناتها وتعدد مناحيها واتجاهاتها، ولا سيما بعد ظهور العلوم والمناهج والمصطلحات الحديثة، التي رفدت علم اللغة الحديث بالقواعد والنظريات والأفكار التي ملأت رفوف المكتبات، وكان من بين هذه المصطلحات مصطلحا : "المنهج التاريخي" و "المنهج المقارن".

إن هذين المصطلحين قد أخذا أبعادا واسعة بين الدراسات اللغوية المختلفة قديما وحديثا، إلا أن مفهومهما العلمي المقنن قد بدأ يأخذ ملامحه الواضحة عن طريق علم اللغة الحديث.

فالمنهج التاريخي: هو وصف اللغة ببيان ما طرأ عليها من تغييرات في استعمالها زمانًا ومكانًا، وعليه سنطرح سؤالا هو: هل علم اللغة التاريخي يرادف تماما المنهج التاريخي، وما مدى التقارب بين لفظتي "علم" و"منهج"؟

فالدراسات المختصة استعملت المصطلحين بالدلالة والمفهوم نفسه، ولا بد من أن نضع تمييزا واضحا بين المصطلحين، فمصطلح العلم يعني مجموعة مسائل وأصول تجمعها جهة واحدة، كعلم الكلام، وعلم النحو، وعلم الأرض، وعلم الكونيات...الخ، أما المنهج فهو الطريق الواضح المستقيم، فإذا كان العلم ذا مسائل وأصول تجمعها صفة واحدة، فإن المنهج بدلالته المعجمية يكون أشمل وأوسع من العلم، لذا تستعمل الدراسات اللغوية مصطلح "علم اللغة التاريخي"، ولم نجد من يقول " المنهج اللغوي التاريخي"؛ لأن المنهج التاريخي يخدم علم اللغة وغيرها من العلوم.

أما المنهج المقارن فهو بحث الظاهرة اللغوية في أكثر من لغة، وهذه اللغات تنتمي إلى أرومة واحدة.

إن هناك هدفا يرنو إليه المختصون في علم اللغة المقارن، هو تأصيل اللغات والاستدلال على قدمها وحداثتها، مع تفرّد إحداها بأنّها أقرب إلى اللغة الأم، أو بناء أصل مشترك بينها وبين أخواتها للوصول إلى هذه اللغة الافتراضية التي لم يصل إلينا منها نقش أو إشارة أو دليل .